

٢ - رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها

[نشر هذه الرسالة الدكتور محمد ثابت إلفندى ، بمطبعة الاعتماد ، وكتب عليها أنها الطبعة الثانية ، وليس على الرسالة تاريخ النشر ، وأرجح أنه عام ١٩٣٤ م وقدم للرسالة بمقدمة وجيزة ، ذكر فيها أنه رجع إلى ثلاث نسخ خطية ، اثنتان منها عن مكتبة طلعت ، والثالثة عن برلين . ورمز للنسخ بالحروف ب ، ح ، ز . وقد أعدنا نشر الرسالة دون الرجوع إلى الاختلافات ، مرجحين قراءتنا الخاصة] .

obeikandi.com

رسالة

في معرفة النفس الناطقة وأحوالها

للأبي علي بن سينا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي لا يخيب من بابه أمل ، ولا يحرم عن جنبه عامل ، ولا يحجب العارفين عن ورود مناهل مشاهدة أنوار جلاله مانع وحائل ، ولم يمنع المشتاقين للقاءه عن الصعود من حضيض الفراق إلى أوج الوصال ناقص أو كامل ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من أخلص لمشاهدة جلاله سره ، وعرض في منازل التوحيد على أعين النظر سيره ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي عقد على أجياد أرواح الأبرار قلائد الأسرار ، فصلوات الله عليه وعلى آله الأخيار . وبعد فهذه رسالة حررتها في علم النفس ، وجعلتها ثلاثة فصول :

الفصل الأول : في إثبات أن جوهر النفس مغاير لجوهر البدن .

الفصل الثاني : في بقاء النفس بعد فناء البدن .

الفصل الثالث : في مراتب النفوس في السعادة والشقاوة بعد مفارقة النفس عن البدن .

ثم ألحقت بها خاتمة أذكر فيها العوالم الثلاثة التي هي عالم العقل ، وعالم النفس ، وعالم الجسم ، وترتيب الوجود من لدن الحق الأول إلى أقصى مراتب الموجودات على الترتيب النازل من عنده تعالى ، ليكون الناظر في هذه الرسالة مطلعاً على جمل من أجناس المخلوقات وشطر

من أنواعها ، فأهديت هذه الرسالة التي هي مشتملة على أهم المطالب : وهو معرفة الإنسان نفسه وما يؤول إليه حاله بعد الارتقاء . وأيضاً فإن معرفة النفس مرقاة إلى معرفة الرب تعالى ، كما أشار إليه قائل الحق بقوله : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » . ولو كان المراد بالنفس في هذا الحديث هو هذا الجسم لكان كل أحد عارفاً بربه ، أغنى خصوص معرفته ، وليس كذلك ، فهذه الرسالة تهديك إلى الأسرار الخزونة في عالم النفس الذي غفل عنه الدهماء من الناس ، بل أكثر العلماء عنه غافلون . ولهذا أوحى إلى رسول الله لما سئل عن حقيقة الروح « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » ثم قال عقيبه : « وما أوتيت من العلم إلا قليلاً » تنبيهاً على أكثر الناس عن النفس وحقيقة الروح . فهذا هو الإشارة المختصرة إلى فوائد هذه الرسالة .

فلنشرع فيما ذكر من الفصول بتوفيق الله وحسن هدايته .

الفصل الأول

في إثبات أن جوهر النفس مغاير لجوهر البدن

فنعول : المراد بالنفس ما يشير إليه كل أحد بقوله « أنا » . وقد اختلف أهل العلم في أن المشار إليه بهذا اللفظ هو هذا البدن المشاهد المحسوس أو غيره . أما الأول فقد ظن أكثر الناس وكثير من المتكلمين أن الإنسان هو هذا البدن ، وكل أحد فإنما يشير إليه بقوله « أنا » ، فهذا ظن فاسد لما سنبينه . والقائلون بأنه غير هذا البدن المحسوس اختلفوا : فمنهم من قال إنه غير جسم ولا جسماني ، بل هو جوهر روحاني قاض على هذا القلب وأحياء ، واتخذ آلة في اكتساب المعارف والعلوم ، حتى يستكمل جوهره بها ، ويصير عارفاً بربه ، عالماً بمحققاته ومعلوماته ، فيستعد بذلك للرجوع إلى حضرة ، ويصير ملكاً من ملائكته في سعادة لانهاية لها ؛ وهذا هو مذهب الحكماء الإلهيين والعلماء الربانيين . ووافقهم في ذلك جماعة من أرباب الرياضة وأصحاب المكاشفة ، فإنهم شاهدوا جواهر أنفسهم عند انسلاخهم عن أبدانهم واتصالهم بالأنوار الإلهية ؛ ولنا في صحة هذا المذهب من حيث البحث والنظر براهين .

البرهان الأول :

تأمل أيها العاقل في أنك اليوم في نفسك هو الذي كان موجوداً جميع عمرك حتى إنك تتذكر كثيراً مما جرى من أحوالك ، فأنت إذن ثابت مستمر لاشك في ذلك ، وبدتك وأجزاؤه ليس ثابتاً مستمراً ، بل هو أبداً في التحلل والانقراض . ولهذا يحتاج الإنسان إلى الغذاء بدل ما تحلل من بدنه ، فإن البدن حار رطب ، والحار إذا أثر في الرطب تحلل جوهر حتى فني بكيته ، كما لو يوقد عليه النار دائماً فإنه ينحل إلى أن لا يبقى منه شيء ؛ ولهذا لو

حبس عن الإنسان الغذاء مدة قليلة نزل وانتقص قريب من ربع بدنه . فتعلم نفسك أن في مدة عشرين سنة لم يبق شيء من أجزاء بدنك ، وأنت تعلم بقاء ذاتك في هذه المدة ، بل جميع عمرك ، فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة . فهذا برهان عظيم يفتح لنا باب الغيب ، فإن جوهر النفس غائب عن الحواس والأوهام . فمن تحقق عنده هذا البرهان وتصوره في نفسه تصورا حقيقياً فقد أدرك ما غاب عن غيره .

البرهان الثاني :

هو أن الإنسان إذا كان متهماً في أمر من الأمور فإنه يستحضر ذاته حتى إنه يقول : إني فعلت كذا أو فعلت كذا ، وفي مثل هذه الحالة يكون غافلاً عن جميع أجزاء بدنه ؛ والمعلوم بالفعل غير ماهو مغفول عنه ، فذات الإنسان مغايرة للبدن .

البرهان الثالث :

هو أن الإنسان يقول : أدركت الشيء الفلاني ببصري فاشتبهته ، أو غضبت منه ، وكذا يقول : أخذت يدي ، ومشيت برجلي ، وتكلمت بلساني ، وسمعت بأذني ، وتفكرت في كذا وتوهمته وتخيلته ؛ فنحن نعلم بالضرورة أن في الإنسان شيئاً جامعاً يجمع هذه الإدراكات ويجمع هذه الأفعال ، ونعلم أيضاً بالضرورة أنه ليس شيء من أجزاء هذا البدن مجعاً لهذه الإدراكات والأفعال ، فإنه لا يبصر بالأذن ولا يسمع بالبصر ولا يمشي باليد ولا يأخذ بالرجل ، ففيه شيء يجمع لجميع الإدراكات والأفعال الإلهية ، فإذا الإنسان الذي يشير إلى نفسه بـ « أنا » مغاير لجملة أجزاء البدن ، فهو شيء وراء البدن . ثم نقول : إن هذا الشيء الذي إنه هوية الإنسان ومغاير لهذه الجثة لا يمكن أن يكون جسماً ولا جسمانياً ، لأنه لو كان كذلك لكان أيضاً منحللاً سيلاً قابلاً للكون والفساد بمنزلة هذا البدن ، فلم يكن باقياً من أول عمره إلى آخره ، فهو إذن جوهر فرد روحاني ، بل هو نور فائض على هذا القلب المحسوس بسبب استعداده وهو المزاج الإنساني . وإلى هذا المعنى أشير في الكتاب الإلهي بقوله :

« فإذا سويته ونفخت فيه من روحي » فالتسوية هو جعل البدن بالمزاج الإنسي مستعداً
لأن تتعلق به النفس الناطقة ، وقوله : « من روحي » إضافة لها إلى نفسه لكونها جوهرأ
روحانيا غير جسم ولا جسماني .
فهذا ما أردنا أن نذكره في هذا الفصل .

الفصل الثاني

في بقاء النفس بعد بوار البدن

اعلم أن الجوهر الذي هو الإنسان في الحقيقة لا يفنى بعد الموت ، ولا يبلى بعد المفارقة عن البدن ، بل هو باق لبقاء خالقه تعالى ، وذلك لأن جوهره أقوى من جوهر البدن ، لأنه محرك هذا البدن ومديره ومتصرف فيه ، والبدن منفصل عنه تابع له ، فإذا لم يضر مفارقه عن الأبدان وجوده ، إذ البدن موجود باق بعد الموت ، فإذا لم يضر وجود النفس ، وبقاؤه كان أولى . ولأن النفس من مقولة الجوهر ، ومقارنته مع البدن من مقولة المضاف ، والإضافة أضعف الأعراض لأنه لا يتم وجودها بموضوعها ، بل يحتاج إلى شيء آخر وهو المضاف إليه ، فكيف يبطل الجوهر القائم بنفسه ببطالان أضعف الأعراض المحتاج إليه ؟ ومثاله أن من يكون مالكا لشيء متصرفاً فيه ، فإذا بطل ذلك الشيء لم يبطل المالك ببطالانه ، ولهذا فإن الإنسان إذا نام بطلت عنه الحواس والإدراكات وصار ملقاً كالميت ؛ فالبدن النائم في حالة شبيهة بحال الموتى ، كما قال رسول الله عليه السلام : « النوم أخو الموت » . ثم إن الإنسان في نومه يرى الأشياء ويسمعها ، بل يدرك الغيب في المنامات الصادقة بحيث لا يتيسر له في اليقظة . فذلك برهان قاطع على أن جوهر النفس غير محتاج إلى هذا البدن ، بل هو يضعف بمقارنة البدن ويتقوى بتعطله ، فإذا مات البدن وخرب تخلص جوهر النفس عن جنس البدن . فإذا كان كاملاً بالعلم والحكمة والعمل الصالح انجذب إلى الأنوار الإلهية ، وأنوار الملائكة ، والملا الأعلى ، انجذاب إبرة إلى جبل عظيم من المغناطيس ، وفاضت عليه السكينة ، ووحقت له الطمأنينة ، فنودي من الملا الأعلى : « يأتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » .

الفصل الثالث

في مراتب النفوس في السعادة والشقاوة بعد المفارقة عن الأبدان

اعلم أن النفس الإنسانية لا تخلو عن ثلاثة أقسام : لأنها إما أن تكون كاملة في العلم والعمل ، وإما أن تكون ناقصة فيهما ، وإما أن تكون كاملة في أحدهما ناقصة في الآخر . وهذا القسم الثالث على قسمين : لأنها إما أن تكون كاملة في العلم ناقصة في العمل أو بالعكس . فتكون أصناف النفوس بحسب القسمة الأولى ثلاثة كما ورد في القرآن : « وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة » ثم قال : « والسابقون السابقون أولئك المقربون » فنقول : أما الكاملون في العلم والعمل فهم السابقون ، ولهم الدرجة القصوى في جنات النعيم ، فيلتحقون من العوالم الثلاثة بعالم العقول ، ويتنزهون أن يقارنوا درن الأجسام ونفوس الأفلاك مع جلالة قدرها ، فهؤلاء هم السابقون الذين هم في المرتبة العليا . وأصحاب اليمين وهم في المرتبة الوسطى يرتفعون عن عالم الاستحالة ويتصلون بنفوس الأفلاك ، ويتطهرون عن دنس عالم العناصر ، ويشاهدون النعيم الذي خلقه الله تعالى في السموات من الحور العين ، وألوان الأطعمة اللذيذة ، وألحان الطيور التي تقصر أوصاف الواصفين عن ذكرها وشرحها ، كما قال عليه السلام حكاية عن ربه : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ؛ فهذه مرتبة المتوسطين من الناس . ولا يبعد أن يتمادى أمرهم إلى أن يستعدوا للفوز بوصول الدرجة العليا ، فينغمسوا في اللذات الحقيقية ، واصلين إلى السابقين ، بعد انقضاء دهور تأتي عليهم ؛ فهذه مرتبة أصحاب الشمال ، وهم النازلون في المرتبة السفلى ، المنغمسون في بحور الظلمات الطبيعية ، المتكسون في قعر الأجرام

العنصرية ، المنتحسون في دار البوار ، وهم الذين « دعوا هنالك ثبوراً لاندعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً » .

فهذا شرح أحوال الأرواح البشرية بعد المفارقة عن الأجسام والمهاجرة إلى دار الآخرة ، وقد اتفق على صحتها الوحي الإلهي والآراء الحكيمة ، كما شرحناه .

خاتمة الرسالة

في ذكر العوالم الثلاثة التي هي عالم العقل وعالم النفس وعالم الجسم ، وترتيب الوجود من لدن الحق تعالى إلى أقصى مراتب الموجودات ، على الترتيب النازل منه تعالى ، فنقول : إن أول ما خلق الله تعالى جوهر روحاني هو نور محض قائم لافي جسم ولا في مادة ، دراك لذاته وخالفه تعالى ، هو عقل محض . وقد اتفق على صحة هذا جميع الحكماء الإلهيين والأنبياء عليهم السلام كما قال صلعم : « أول ما خلق الله تعالى العقل ، ثم قال له [أقبل فأقبل ، ثم قال له] أدبر فأدبر ، ثم قال فبعرزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعز منك ، فبك أعطى ، وبك آخذ ، وبك أئيب ، وبك أعاقب » ؛ فنقول هذا العقل له ثلاثة تعقلات : أحدها : أنه يعقل خالقه تعالى .

والثاني : أنه يعقل ذاته واجبة بالأول تعالى .

والثالث : أنه يعقل كونه ممكناً لذاته .

فحصل من تعقله خالقه عقل هو أيضاً جوهر عقل آخر ، كحصول المراجع من سراج آخر . وحصل من تعقله ذاته واجبة بالأول نفس ، هي أيضاً جوهر روحاني كالعقل . إلا أنه في الترتيب دونه .

وحصل من تعقله ذاته ممكنة لذاته جوهر جسماني هو الفلك الأقصى ، وهو العرش بلسان الشرع .

فتعلقت تلك النفس بذلك الجسم ؛ فتلك النفس هي النفس الكلية الحركة للفلك الأقصى ، كما تحرك نفسنا جسمنا . تلك الحركة شوقية بها تتحرك النفس الكلية الفلكية شوقاً وعشقا إلى العقل الأول ، وهو المخلوق الأول ، فصار العقل الأول عقلاً للفلك الأقصى

ومطاعاً له ، ثم حصل من العقل الثانى عقل ونفس وجسم : فالجسم هو فلك الثانى وهو فلك الثوابت وهو الكرسي باسان الشرع ، وتعلقت النفس الثانية بهذا الفلك .

وهكذا حصل من كل عقل ونفس وجسم ، إلى أن ينتهى إلى العقل العاشر ، ثم حصل منه العالم العنصرى . والعناصر أربعة : الماء والنار والهواء والأرض ، وحصلت منها المواليد الثلاثة وهى المعادن والنبات والحيوان والإنسان الذى هو أكمل الحيوانات ، وهو بنفسه يشبه الملائكة ، ويمكن أن يبقى بقاء السرمد إذا تشبه بها فى العلم والعمل ، ويصير هو أيضاً أخس من البهائم والسباع إذا انصف بأخلاقها داخل الأرض واتبع هواه وكان أمره فرطاً . وأما إذا تنزه عن طرفى الإفراط والتفريط فى الأخلاق ، وتوسط بينهما فلم يكن شبقاً ولا خامداً فى القوة الشهوانية بل يكون عفيفاً ، فإن العفة توسط الشهوة ، ولا يكون أيضاً متهوراً ولا جباناً بل يكون شجاعاً بحسب القوة الغضبية ، فإن الشجاعة تتوسط بين التهور والجبانة . وكذلك له حكمة فى المعيشة ، وهى حسن التدبير فيما بينه وبين غيره ، إما بحسب أهل منزله الخاص وهو يتم بين زوج وزوجه ووالد ومولود ومالك وعملوك ، وإما بحسب أهل المدينة فى المعاملات وفى السياسات إن كان له رتبة فى السياسة ؛ وهذه الحكمة توسط فى تدبير نفسه وغيره دون الجربرة والبلاهة . وهذه الحكمة غير الحكمة التى هى العلم بالحقائق ، فإن تلك الحكمة كلما كانت أشد إفراطاً كان أحسن ، وهذه الحكمة لا ينبغي أن تكون بالإفراط وإلا لكانت جربرة ، ولا بالتفريط وإلا لكانت بلاهة .

وهذه الخصال الثلاث أعنى : العفة والشجاعة والحكمة ، هى التى سميت « عدالة » فالعدالة هى مجموع هذه الثلاث ، فمن اتصف بها وكان أيضاً حكيماً بالحكمة النظرية التى هى العلم بحقائق الأشياء ، فقد صار كاملاً فى العلم والعمل وصار من جملة من قيل فى حقهم : « والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم » .

فإن قلت فهل يمكن أن تُحد الحكمة النظرية تحديداً لا يمكن أن يكون أقل منه ،

حتى تسعد بها النفس تلك السعادة فيكون من السابقين للذكورين ؟ قلتُ : يمكن ذلك
التحديد بالتقرير ، فنقول :

ينبغي أن يكون عالماً بوجود واجب الوجود تعالى ، وصفات جلاله ونعوت كماله ،
وتنزيهه عن التشبيه ، ويتصور عنايته بالخلوقات وإحاطة علمه بالكائنات ، وشمول قدرته على
جميع المقدرات ؛ ثم يعلم أن وجوده يبتدىء من عنده سارياً إلى الجواهر العقاية ، ثم إلى
النفوس الروحانية الفلكية ، ثم إلى الأجسام العنصرية بسائطها ومركباتها من المعادن والنبات
والحيوان كما ثم يتصور جوهر النفس الإنسانية وأوصافها وأنها ليست بجسم ولا جسمية ، وأنها
باقية بعد خراب البدن إما منعمة وإما معذبة . فهذا القدر من العلم مُجْمَلُهُ ومُفَصَّلُهُ هو
القدر الذي إذا حصل للإنسان استسعد بالسعادة التي شرحنا حالها ، أعنى سعادة السابقين
الكاملين . وبقدر ما ينتقص علمه وعمله انتقص من درجاته وقربه من الله تعالى . وأما الذين
قد انحطت رتبهم عن درجة هؤلاء الكاملين علماً وعملاً وهم المتوسطون ، فيكونون إما
كاملين في العمل دون العلم ، أو بالعكس ، فهم يكونون محجوبين عن العالم العلوي مدة حتى
تفسخ عنهم تلك الهيئات الظلمانية ب تلك الأعمال الردية التي كانوا يعملونها في حياتهم الدنيا ،
وتتقرر الهيئة النورية قليلاً قليلاً فيتخلصوا إلى عالم القدس والطهارة ، ويلتحقوا بهؤلاء
السابقين . وأما الكاملون في العلم دون العمل من القسمين المتوسطين ، وهم المتزهون من
أهل الشرائع الذين يعملون الصالحات ، ويؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويتبعون الأنبياء فيما
أمروا ، ونهوا عنه ، ولكن لا تكون لهم زيادة بسط من حقائق العلوم ، ولا يعرفون أسرارها
والأسرار والتفزيلات الإلهية وتأويلاتها ، فهم إذا تخلصوا عن أبدانهم انجذبت نفوسهم إلى
نفوس الأفلاك ، وعرجوا إلى السموات ، فشاهدوا جميع ما قيل لهم في الدنيا من أوصاف الجنة
في غاية الشرف والرتبة ، يلبسون فيها من سندس وإستبرق ، وحلوا أساور من فضة متكئين
فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ؛ ولكن لا يبعد أن يفضى بهم الأمر إلى

أن يرتقوا إلى العالم العقلى والصنع الإلهى ، فينغمسوا فى اللذات الحقيقة التى لا يمكن أن يشرحها بيان ، ولا يكشف عنها مقال ، ولا يوازىها حال .

وإذ قد وصلنا إلى هذا المقام وكشفنا هذه الأسرار التى عميت عنها أبصار أكثر الناس ، وغفلوا عن أنفسهم وأحوالهم على الحقيقة ، فلنكتف بهذا القدر من الاستبصار للطالبيين المسترشدين ؛ جعلنا الله وإياكم من المهتدين إنه هو البر الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله والطاهرين أجمعين .

تمت الرسالة الشريفة فى النفس الناطقة بتوفيق الله
وبمن جوده وكرمه